غزل أبي فراس*

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

غزل أبي فراس قصير النفس ، لا يكاد يتجاوز ما أنشأه للغزل قصدا البيتين والثلاثة غالبا ، مكتفيا بذلك في التعبير عما ألم به ، من انفعال سريع .

أعرف شاعرنا الحب ؟ أم أن غزله تقليدي لا ينبعث عن حب ولا عاطفة ؟

أرجح أن الشاعر عرف الحب وتأثر به ، بدليل هذه القطع التي نظمها خاصة في النسيب ، ولم يقف عند حد المقدمات التي يفتتح بها بعض قصائده . ولم يكن أبو فراس ممن ينشىء الشعر إلا ترجمة لعاطفة ، وتعبيراً عما في نفسه ، ولكننا نكاد نلمس أن هذا الحب ، ما كان يشغل من هذه النفسية الشاعرة إلا حيزاً محدوداً صغيراً ، لأن هذا القلب الكبير كان في شغل بكبار الأماني وسامي الآمال ، ولم يدع ذلك منه إلا فراغا يسيرا تشغله هذه العاطفة القوية .

عرف شاعرنا الحب ، ولعل من بادئها تلك العاطفة كانت قريبة له ، وربما كانت جميلة بنت ناصر الدولة ، فإنه أنشأ قصيدة يودع بها بعض أهله ، وقد خرجت تسعى إلى الحج ، وهذه القصيدة تفيض بعواطف حارة متدفقة ، يتم عنها بكاؤه ، ويذكيها في صدره ما اختارت به تلك الفاتنة من غرام بالصون ، وحب للحجاب حتى ليكاد وجهها تحق ممالك على خدرها ، وها هو ذا يقص علينا حديثه يوم سافرت تلك الحبيبة المصونة ولطالما جميلة :

أشيعه ، والدمع من شدة الأسى ... على خده نظم ، وفي نحره نثر
رجعت ، وقلبي في سجاف غبيطه ... ولي لفتات نحو هودجه كثر
وفيمن حوى ذاك الحجيج خريدة ... تحادون عطف الستر من صونها ستر
وفي الكم كف لا يراها عديلها ... وفي الخدر وجه ، لمس برفقه الخدر

وقد سجل في هذه القصيدة شعورا صادقا حيا . وإن شدة شعوره بحيوية تلك الحبيبة ، جعلته يحس كأنها تبعث الحياة فيما يحيط بها ، حتى في النبات والجماد ، فيقول :

فهل عرفت عارفات بزورها ... وهل شعرت تلك الشعاروالحجر
أما اخضر من ريحان مكة ماذوى ... أما أعشب الوادي ؟ أما أنبت الصخر

وقد أنشأ هذه القصيدة في النزل خاصة ؟ وهي أطول شعره فيه ، وربما ذاق من هذا الحب ، ما شجاه حينا وأشناه ، حتى صح له أن يقول :

أمنية بالمنزل ، رفقا بقلبه ... أيحمل ذا قلب ، ولو أنه صخر ؟
عذيري من اللائي يلمن على الهوى ... أما ق الهوى لو ذقن طعم الهوى عذر
ومنكرة ما عاينت من شحوبه ... ولا عجب ما عاينته ، ولا نكر
وقائلة : ماذا دهاك تعجبا ؟ ... فقلت لها : ياهذه ، أنت والدهر
أبالبين ، أم بالهجر ، أم بكليهما ... تشارك فيما ساءني البين ، والهجر

كان صدق إحساس أبي فراس بالحب ينبوعا لتعبيرات صادقة عن عواطف صادقة ، فهو يخشى على حبيبه أن تمسه العيون بأذاها فيستحثه أن يرد عليه لثامه :

أياسافرا ، ورداء الخجل ... مقيم بوجنته ، لم يزل
بعيشك ، رد عليك اللثام ... أخاف عليك جراح المقل
فما حق حسنك أن يجتلى ... ولا حق وجهك أن يحتل

ويتقبل ظلم حبيبه ، بنفس راضية ، بل متلذذة بهذا الظلم :

وبعض الظالمين وإن تناهى ... شبيه الظلم مغفور الذنوب

(*) من كتاب « شاعر بني حمدان » الذي يظهر في هذا الأسبوع

في العالم الخارجي المحسوس ولا يقره العقل . أو ليست الحقيقة البسيطة الملموسة التي تؤكد نفسها علينا كل لحظة هي استحالة وجود رجلين متساويين في الخلق والمواهب والقدرة ؟ أولا ترون أن الفيلسوف هكسلي لم يكن متمردا من أن يهزأ علنا من تصور "Common man" وحقوق الإنسان الطبيعية ؟ فهل تقنع بوجوب إستبدال أرستقراطية العقل والذكاء بأرستقراطية الحسب والمال ؟ حقا ! لا ينشأ تصور المساواة بين الناس إلا بالنظر إلى علاقتهم جميعا مع خالق الزمان والمكان ومصرف الكون والفساد .

السيد محمد يوسف

ويقر أنه مذنب ، وإن لم يجن ذنبا ، ويتوب من إثم لم يقترفه

أقر له بالذنب والذنب ذنبه ويزعم أني ظالم فأتوب

ويتصدى بالهجر عما يأتيه إلى على ما كان منه حبيب

ويجد في الهجر القصير الأجل لذة تجدد الحب :

إنما يحسن النهاجر يوما فإذا كان دائما فمليح

كل هجر يدوم يوما إلى الليل ، ويفنى ، فذاك هجر مليح

ويتخيل حبيبه وقد غاب عنه ، فيصوره في شعره ، ويتساءل : أينساه وقد غاب عنه :

وبالهارين إنسان له في القلب داران

إذا ماماس في القر طن يسمى بين أحدان

رأيت البدر قد با ن على غصن من البان

وخدا يجتنى الور د ، به ، في كل إبان

ألا ياصاحبي رحلي ، بالله أجيباني

ترى من لست أنساه على الحالات ينساني

ويتحمل إذلاله ويحفظ عهده ، لأنه ليس له عنه معدى ولا متحول :

نبوة الإذلال ليست عندنا ذنبا يعد

قل لمن ليس له عهد : لنا عهد ، وعقد

جملة تغنى عن التفصيل : مالي عنك بد

إن تغيرت فما غيـ ـر منا لك عهد

ويقبل ذلة الحب برغم أنه أمير من بيت الملك :

وياخلة أنالتني قليلا وقد يرضى القليل من البخيل

قنعت به ، وكنت أظن أني عزوف النفس عن نيل قليل

ولكني وجدت الحب يكسو عزيز القوم أثواب الذليل

وما كان يرى ذل الحب إلا عزاً :

بنفسي التي أخفت مخافة أهلها وداعي ، وأبدت حين أبدت لنا رمزا

فلم أر مقتولين : مثل ومثلها أذلا ، وإن كانا لسمر الهوى عزا

ويستسلم للحب وإن قوبل بالجفاء :

وكفى الرسول عن الجواب نظارنا وإن كفى ، فلقد علمنا ما عنى

قل يارسول ، ولا تحاش ، فإنه لابد منه ، أساءني ، أم أحسنا

الذنب لي فيما جناه ، لأنني مكنته من مهجتي ، فتمكنا

ولكنه يثور على الحب إذا كان فيه غدر وخيانة :

الآن حين عرفت رشدي ، وافتديت على حذر

ونهيت نفسي فانتهت ، وزجرت قلبي فازدجر

وقد أقام على الضلالة ، ثم أذعن واستقر

الحب فيه مذلة ، إلا على الرجل الذكر

هيهات ، لست أبا فراس ، إن وفيت أن غدر

وتلك ثورة نفسية ، تدرك الحب إذا رأى الغدر ممن يحب .

هذا ، وأرجح أن الحب الذي كان بينه وبين قريبته كان حبا طاهراً عفيفاً ، تحوطه شدة الصيانة من جانب الحبيبة . وأغلب الظن أن هذه الليالي التي غاب الحر فيها عقل من هوى ، والتي يصف واحدة منها بقوله :

وزيارة من غير وعد في ليلة طرقت بسعد

بات الحبيب إلى الصباح معانقي ، خصدا لحسد

يتسار في وناظري ماشئت من خمر وورد

قد كان مولاي الأجل فصيرته الراح عبدي

ليست بأول منة مشكورة للراح عندي

لم تكن مع هذه القريبة المحتشمة .

وقد ذكرنا أن أبا فراس قد أخذ بنصيب من اللهو ، ولعله كان يرى أن الحب لا يحول بينه وبين المتعة ، إذا ظفر بها .

ومن مجموعة شعر أبي فراس نستطيع أن نرسم صورة للمرأة المثالية عنده ، فهي البيضاء ، المتوردة الخد ، الفاترة الجفن ، ذات الشعر الفاحم ، المشوقة القد ، الناهدة الصدر ، الهيفاء الخصر ، في غير هزال .

وتغزل أبو فراس بالغلمان كذلك ؛ وإن هذا الداء الوبيل قد وجد سبيله إلى قلب شاعرنا ؛ وكانت البيئة التي عاش فيها تساعد عليه ؛ فقد كان أميره ومثله الأعلى سيف الدولة يعشق غلاما تركيا اسمه بشارك .

تغزل أبو فراس في غلمانه ، وترك من هذا الغزل مقطوعات قصيرة كذلك ، وبعضها يفيض بالرقة والحنان ، يقول :

الورد في وجنتيه والسحر في مقلتيه

وإن عصاني لساني فالقلب طوع يديه

يا ظالما ، لست أردي أدعو له ، أم عليه

واسم هذا الغلام منصور ، وله غلمان آخر ، وإن كان لمنصور الغلب على قلب الشاعر . ولسنا ندري جنسيته على وجه التحقيق ، ولا إن كان هو المقصود بتلك الأبيات التي يتغزل فيها بملوك فارس ، وقد استغل الشاعر فيها معركة ذي قار ، التي كانت لقبائل

العرب زمن بيتها تغلب قبيلة الشاعر على الفرس ، وقد أحسن هذا الاستغلال حين قال :

بأبي شادن ، بديع الجمال ... أعجمي الهوى ، فصيح الدلال
سل سيف الهوى علي ، ونادى ... بالثأر الأعمام والأخوال
كيف أرجو ممن رمى الثأر عندي ... خلفا من نعاط ووصال
ما درت أسرتي بذي قار أني ... بعض من جندلوا من الأبطال
أيها اللائمي جرائر قومي ... بعد ما قد مضت عليها الليالي
« لم أكن من جناتها علم الله ، وإني بحرها اليوم صالي »

ولأبي فراس ، غير هذا الغزل الحقيقي ، غزل تقليدي يفتتح به قصائده ، ولا يريد به غالباً التعبير عن عواطف تجيش في نفسه . وهو في هذا الغزل يتشبه بالأقدمين في وقوفهم على الديار ، وسؤالهم الأطلال :

على ربع الرباب وقفة ... يملي على الشوق والدمع كاتب
فلا ، وأبي العشاق ، ما أنا عاشق ... إذا هي لم تلعب بصبري الملاعب
ومن مذهبي حب الديار لأهلها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

وفي هذا الغزل التقليدي يبدو الضعف ، والمثالة والصناعة اللفظية ، وتكرير المعاني المألوفة ، ولا تمس بروح الغزل القوية المتدفقة ، وأي قوة في قوله :

قلوب فيك دامية الجراح ... وأكباد مكلمة النواحي
وحزن لا نفاد له ، ودمع ... يلاحي في الصبابة كل لاح
أتدري ما أروح به ، وأغدو ... فتاة الحي : حي بني رياح
ألا يا هذه ، هل من مقيل ... لضيفان الصبابة أو سراح

وترى التشبيهات المتداولة بالشمس والغزالة والأقحوان ، كما تلحظ في هذا الغزل أيضاً التناقض ، وعدم الوقوف عند المعقول . تجد هذا التناقض في قوله :

إن الحبيب الذي هام الفؤاد به ... ينام عن طول ليل ، أنت ساهره
ما أنس لا أنس يوم البين موقفنا ... والشوق ينهى البكا عني ، ويأمره
وقولها ، ودموع البين واكفة ... « هذا الفراق الذي كنا نحاذره »

فحبيب تكف دموعه ويحذر الفراق ، لا ينام عن طول ليل يسهره صاحبه . ويبدو البعد عن حدود المعقول في قوله :

تسائلني من أنت ؟ وهي عليمة ... وهل بفتى مثلي على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى ... قتيلك ، قالت : أيهم فهم كثر

ووجه الغرابة في هذا أن الشاعر قد أخبرنا في هذه القصيدة نفسها أنها قد وعدته بالوصل ، وأنه أحب البدو من أجل حبها ، وحارب قومه في سبيل هواها ، ولا يعقل بعد ذلك أن تجهله الحبيبة ولا تدري من هو ؟ وهي التي يقول فيها :

معللتي بالوصل ، والموت دونه ... إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر
بدوت ، وأهلي حاضرون ، لأنني ... أرى أن دارا أنت من أهلها قفر
وحاربت قومي في هواك ، وإنهم ... وإياي - لو لاحيك - الماء والخمر

نلاحظ في غزل أبي فراس ، سواء الحقيقي منه والتقليدي ، أنه غزل فارس ، تلمس فيه روح الفتوة ، وتجد منثوراً بين أبياته لثة الفرسان المحاربين ، ويأخذ من هذه اللثة تشبيهاته واستعاراته ، فتسمعه يقول :

أغرن على قلبي بخيل من الهوى ... فطارد عنهن النزال المنازل
بأسهم لفظ لم تركب نصالها ... وأسياف لحظ ، ما جلتها الصياقل
وقائم قتلى الحب فيها كثيرة ... ولم يشتهر سيف ، ولا هز ذابل
أراميتي ، كل السهام مصيبة ... وأنت لي الراءي ، فكل مقاتل

ويقول متعجباً كيف يمدح حبيبه جيش سقامه بالهجر ، فينصره :

بالله ربك ، لم فتنت بصبره ... ونصرت بالهجران جيش سقامه

وفي سبيل طاعة الحب ، قد استشهد الصبر والسلو :

مالي بكتمان هوى شادن ... عيني له عين على القلب
عرضت صبري وسلوي له ... فاستشهدا في طاعة الحب

ويشبه طرة من يحب بالورد المناعف :

ومرتد بطرة مسدولة الرفارف
كأنها سبلة من ورد مناعف

أبو فراس حين يجعل الغزل مقدمة لأغراض أخرى ، يجتهد غالباً في أن يجعل روح الغزل مناسبة لروح الموضوع الذي يقصد إليه ، ولعل أنسب من هذا الغزل العاتب يبدأ بعتابه لسيف الدولة :

أما جميل عندكن ثواب ... ولا لسيء عندكن متاب

أو أنسب من البدء بإهداء التحية لمن يحبها ، في قصيدة يحيي بها إخوانه في الوصل ، إذ يقول :

سلام ، رائح ، غادي ... على ساكنة الوادي

أو من البدء بهذا الغزل الحزين ، الذي يشكو الفراق في قصيدة أرسلها إلى أخيه ، وهو أسير :

فديتك إني للصبابة صاحب ... وللنوم مذ زال الخليط مجانب
وما أدعي أن الخطوب تجانبي ... لقد خبرتني بالفراق النوائب

ولكن الشاعر في أغلب الأحيان ، ما كان يحسن التخلص من الغزل إلى الغرض المقصود ، بل كان انتحاله لجمالها ، وهو

في ذلك يشبه البحتري زعيم شعراء الشام. فها هو ذا — مثلا — يتغزل، ويختم غزله بقوله:

وقد هاديت ضوء الصبح حتى ... لطرقن عن مطالعه ازورار

ثم ينتقل إلى الفخر قائلا من غير أن يحسن التخلص:

ومضطغن يراود في عيبا ... سيلقاه إذا سكنت وبار

وفي بعض الأحيان يحسن التخلص، كما في تلك القصيدة التي بعث بها إلى ابن عمه أبي زهير، وفيها يقول:

يا أخي يا أبا زهير، ألي عندك عون على النزال الغرير ؟!

لم تزل مشتكاي في كل أمر ... ومنيتي، وعمدتي، ومشيري

وهكذا يمضي في حديث ابن عمه

وقبل أن أختم الحديث عن غزله، أشير إلى ما يبدو في هذا النزل حينا، من شعور أبي فراس بنفسه محبوبا، وأنه ليس شخصا عاديا، ولكنه يحب جدير أن يقابل بغبطة من يحبه، وأن يضم عليه بالنواجذ، فتسمعه يقول.

أجلي يا أم عمر ... زادك الله جمالا

لا تبيعي برخص ... إن في مثلي غلا

بل لقد تدلل مرة على من يحب، حتى شكته إلى إحدى جاراتها:

قامت إلى جارتها ... تشكو بذل وشجا:

أما ترين ذا الفتى ... مر بنا ما عرجا

إن كان ما ذاق الهوى ... فلا نجوت إن نجا

وليس ببعيد أن تعجب بأمير وسيم مثله، بعض أولئك الجميلات اللاتي كن يرينه في غدواته وروحاته.

أحمد أحمد بدوي
مدرس بكلية دار العلوم

مصلحة السجون

إعلان مناقصة

تقبل العطاءات بمكتب سعادة المدير العام لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٩ عن عمليتين كهربائيتين بسجن مزرعة طرة والملعب الرياضي بطرة. ويمكن الحصول على الشروط مقابل ١٠٠ مليم عن كل من العمليتين يضاف إليه ٣٠ مليم أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة دمغة من فئة ثلاثين مليما.

٣٤٨٢

ثلاثة كتب

جديرة بأن تزدان بها مكتبتك

تأليف

محمود تيمور بك

— ١ —

إحسان الله

أحدث مجموعة قصصية للمؤلف

— ٢ —

المخبأ رقم ١٣

كتاب يحوي نسختين من هذه القصة الطريفة

الأولى بالفصحى والثانية بالعامية

— ٣ —

اليوم خمر..!

قصة النفس الإنسانية الحائرة

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بشارع الفجالة بالقاهرة